

تعليم اللغة العربية

أ. د. حامد طاهر

المقصود هنا طبعا هى اللغة العربية الفصحى ، وليس اللهجة العامية ، لأن هذه اللهجة لا مشكلة على الإطلاق فى تعلمها ، حيث ينشأ الطفل وهو يسمعها ، ثم يحاكيها ، وحين يخطئ فـ لها يسرع من حوله لتصحيحها له . أما الفصحى فإنه يتلقاها فى المدرسة خلال مراحلها الثلاث (الابتدائية والاعدادية والثانوية) وهى تبلغ اثنتى عشرة سنة ، وواضح أنها فترة طويلة جدا ، لكنها مع الأسف لا تؤدي — فى نظامنا التعليمى — إلى أى نتيجة عملية ، حيث يظل التلميذ معرضا للخطأ فى قراءة المكتوب بالفصحى ، وشبه عاجز تقريبا عن النطق الصحيح بها ، فضلا عن عدم قدرته على إنشاء نص ذابغ من نفسه فيها .

فإذا لجأنا للمقارنة مع لغة أجنبية كالإنجليزية مثلا ، وجدنا أن الشخص الذى يتجه لتعلمها لا ينفق كل هذا الوقت فى استيعابها ، والتفاهم أو التحدث بها . فما السبب فى ذلك ؟

— هل لأن اللغة الإنجليزية أسهل من اللغة العربية ؟

— أم أن أسلوب تعلم الإنجليزية أجود من أسلوب تعلم العربية ؟

— أم أن الرغبة في تعلم الإنجليزية أقوى من الرغبة في تعلم العربية ؟

— أم أن النتائج المترتبة على تعلم الإنجليزية أجدى من مثيلتها في تعلم العربية؟

ولاشك أن الإجابة عن هذه الأسئلة الأربعة هي التي يمكنها أن تساعدنا في التوصل إلى بعض الحلول التي تطرحها مشكلات تعلم العربية ، وهي مشكلات ينبغي أن يؤرقنا استمرارها على أساس أن اللغة العربية الفصحى هي لغة الدين الإسلامي والمقرآن الكريم والسنة النبوية ، كما أنها لغة التراث العربي الممتد منذ أكثر من ألفى عام ، وأخيرا فهي اللغة التي مازال يتفاهم بها أكثر من مائتي مليون مواطن في المنطقة العربية حتى اليوم ، من حيث هي لغة وسائل الاعلام ، وأهمها الصحافة ، كما أنها لغة المكاتبات الرسمية ، والمؤلفات العلمية ، والأدبية . بل إنها لغة المحاضرات الجامعية والعامة ، وتكاد تكون هي الوسيلة الوحيدة التي يخاطب بها الحكام شعوبهم في المحافل السياسية .

وبالنسبة للسؤال الأول الذي يتعلق بصعوبة اللغة العربية الفصحى ، فإن الواقع يشهد بأن تلك الصعوبة تكاد توجد في كل لغات العالم ، بل أن هنالك من اللغات المشهورة ما هو أصعب بكثير من اللغة العربية ، ومن أمثلتها اللغة الروسية - التي أتيج لى تعلمها ، والعمل مترجما بها أثناء فترة تجنيدى في الجيش المصرى - وهي للعلم تحتوى على أربعة عشر حالة إعراب ، وليس اربعا فقط كما في العربية ، وهي تتطلب تغيير أو آخر الكلمات ، كما أنها تكتب باليد غير ما تطبع في الجرائد والكتب . أما الأصعب منها فهي اللغة الصينية التي هي عبارة عن بحر لا ساح ل له ، أى لا يمكن لأى متحدث بها أن يلم بكل ألفاظها التي تتغير حسب مواقعها في الجملة ، كما تتغير حروف كلماتها حسب معانيها المتعددة فضلا عن الشكل المركب لكل حرف على حدة . لكن مع ذلك ، أو على الرغم منه ، فإن كلا من الروس والصينيين يتعلمون لغتهم ببساطة ، ولما يشكون من صعوبتها ، بل أننا نجدهم معتزيين بها كل الاعتزاز ، وحريصين على التمسك بها ، والتميز فيها .

صحيح أننا لابد أن نعترف بصعوبات اللغة العربية ، وفى مقدمتها ما يتعلق بطريقة كتابتها التى لا تتوافق تماما مع نطقها ، ثم ما يتصل بمعجمها ، وأقصد كثرة مترادفات التى يصعب أحيانا الملاحظة بها . ومنها ما يرتبط ببنية أفعالها التى لا تدخل أحيانا تحت قاعدة موحدة ، ولذلك ينبغى اللجوء فى ذلك إلى العرف السابق (المقياس) . أما قواعد الجملة فيها ، والتى يختص بدراستها علم النحو ، فهى مجمعة فى بناء عقلى محكم ، لكنها تظل شديدة الصعوبة على المبتدئين فى تعلمها . ومن أهم الأسباب التى تنفر المتعلمين عموما من استيعاب علم النحو ، ما يحتوى عليه من التأويل المتعسف لتبرير بعض العبارات التى وردت فى اللغة غير خاضعة للقاعدة العامة . وبدلا من دعوة المتعلمين إلى (حفظها) دون مناقشة ، كما تفعل اللغة الروسية فإن النحاة يسعون فى شرحها وتفسيرها وتأويلها كما قلنا ثم يفرضونها على التلاميذ فى مرحلة تعلمهم الأولى . وأخيرا فإن علم النحو يتم تقديمه للمتعلمين بنفس شكله ومنهجه ومصطلحاته التى كان يقدم بها منذ أكثر من ألف عام . ومن العجيب أن بعض أبواب النحو التى قلت أو انعدمت الحاجة إليها (مثل أبواب الندبة والاستغاثة والاشتغال والتنازع ..) مازالت قائمة حتى اليوم بين باقى القواعد ، دون إرجاء أو إزالة . ولنتأمل مثلا (واو المعية) التى تسبق المفعول معه ، ولما يوجد لها فى اللغة العربية كلها سوى مثال واحد ، وليس شاهدا ، هو (سرت والنيل) !

ويبدو أننا دخلنا الآن فى إجابة السؤال الثانى وهو أسلوب التعلم ، وأول ما يلاحظ هنا أن معلمى اللغة العربية الفصحى لا يتحدثون بها للتلاميذ ، وإنما يستخدم معظمهم – إن لم يكن جميعهم – اللهجة العامية . ومثل هذا العمل لا يحدث بتاتا فى تعلم وتعليم أى لغة أجنبية أخرى . وبذلك يفتقد المتعلم إلى جانب هام فى تعلم اللغة ، وهو السماع المباشر لحروفها وألفاظها وتركيب عباراتها . فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا المتعلم يبقى صامتا ، وهو يتلقى قواعد النظرية من المعلم ، دون أن يضطر – ذات يوم – إلى محاولة التحدث باللغة الفصحى أو الكتابة بها ، وهذا ما يجعل فمه يظل مغلقا ، ولسانه جافا بالنسبة للغة التى يتعلمها . صحيح أنه يمكنه أن يمارس القراءة الصامتة بها ، وهى القراءة التى يتاح له فيها أن يخطئ كما يريد ، دون أن يصحح له أحد ، على عكس ما يجرى فى اللهجة العامية .

ومن أطرف ما شاع – فى هذا الصدد – بين الشباب العربى المعاصر نطقهم لعبارة (فيه قولان) أى أن هذا الموضوع يحتوى على رأيين مختلفين ، حيث حرفوا المثنى الساكن الواو إلى (قولان) بفتحها . ويقصدون بالقولان : الكلام الكثير . وهذا ناتج من عدم سماعهم العبارة الأولى تنطق أمامهم ، ولذلك اقتصر على قراءتها ، ثم راحوا يرددونها بالنطق الجديد ، والطريف أيضا ، الذى اختاروه لها !

وقد أحس أجدادنا وأباؤنا بصعوبة النحو ، لذلك راحوا يكثر من المطولات والمختصرات فيه ، بل إنهم وضعوه فى ألفيات ليسهل حفظه على المتعلمين . ولكن هيهات ! فالنحو العربى - فى ذاته - مثقل بقواعد لا لزوم لها ، وملئ بمصطلحات إعرابية تعسر على فهم أى متعلم ، ومن ذلك مثلا (منصوب على نزع الخافض) وهى عبارة لا يستوعبها إلا عتاة النحاة ، لكنها غير معقولة لدى سائر الناطقين بالعربية .

أما النحاة المحدثون والمعاصرون فمازالوا يضعون تصوراتهم وأحيانا تجاربهم فى مؤلفات تحاول عرض النحو العربى بصورة مبسطة . وقد شاع فى الثلاثينات كتاب (النحو الوافى) الذى تضمن بعض التمارين والكثير من الأمثلة ولكنه ظل صعب المزال على المبتدئين ، وصار اليوم أصعب مما كان عليه ، نتيجة ابتعاد الجيل الحالى عن قواعد اللغة العربية ، ونفورهم منها . وهناك من حاول اختصار علم النحو فأصدر كتابا مكونا من سبعمئة صفحة ، وعندما سألته : هل وضعت فيه الأسماء الخمسة ؟ أجاب بأنها (ستة) !! يعنى أنه وضع الاسم السادس الذى يخلج أى معلم محترم من نطقه - فضلا عن إعرابه - أمام التلاميذ ! وهنال أيضا من حاول وضع القواعد النحوية ، والصرفية فى جداول ، لكنه لم يخرج عن نظامها القديم الموجود فى النحو التقليدى الموروث عن الأجداد .

وإذا سألتنى عن أصل هذه المشكلة المزمنة هنا فإنها ترجع - فى رأى المتواضع - إلى أن النحاة يعتقدون أن النحو هو المدخل لتعلم اللغة ، وليس العكس . والدليل على ذلك أن هذا النحو - بكل دقته وهيلمانه - لم يظهر فى حياة العرب سوى فى القرن الأول الهجرى ، بينما كان العرب قبل وضع علم النحو يتحدثون بالعربية الفصحى ، ويكتبون بها أقوى أشعارهم ، بل أن المشتغلين باللغة ظلوا مائة وخمسين عاما بعد الهجرة يذهبون إلى أعراب الصحارى الأميين ليأخذوا منهم اللغة العربية صافية ، قبل أن (تتلوث) بالعجمة !

وبالتالى فإذا أردنا منهجا جديدا لتعلم العربية الفصحى فعلينا أن نبدأ بانتخاب مجموعة من نصوصها المعاصرة أولا ، ثم التراثية ثانيا ، مع تحليلتها ببعض القواعد البسيطة ، دون ذكر أى شواهد تختص بالضرورات أو العبارات الشاذة . وفى نفس الوقت الذى نعلم فيه المبتدئ كيف يكتب ، لابد أن نعلمه : كيف يقرأ بصوت مسموع ، حتى يتدرب على النطق الصحيح ، ونصح له أخطاؤه أولا بأول .

هنا لابد من إعادة الاعتبار لحصة الإملاء وحصة القراءة في جميع المدارس، مع ضرورة تقليل عدد تلاميذ تعلم اللغة في الفصل الواحد، بحيث لا يزيد — على أكثر تقدير — عن خمسة وعشرين تلميذاً.

كذلك من الأمور المساعدة على تعلم اللغة العربية بصورة جيدة اختيار المعلم المؤهل لذلك، فكلما كان جيد المظهر، واسع الثقافة، محبباً للتلاميذ: زاد اقبالهم على تعلم اللغة، واستساغتهم لصعوباتها وخاصة في بداياتهم، لأنهم حين يتذوقون جمالها سوف ينطلقون وحدهم في مجالاتها ويقتحمون بدون خوف أو تردد آفاقها الواسعة.

لكنني أعود فأؤكد على أهمية النصوص المختارة لتعلم اللغة، وأنها مازالت حتى الآن دون المستوى بمراحل، والسبب في ذلك أن الذين يقومون عليها وينتخبونها هم عادة من قدامى موظفي وزارة التعليم، والذين يفتقدون في أغلب الأحيان للذوق الأدبي الراقى الذى يوجههم لأفضل النصوص في اللغة. لذلك فإننى أقترح هنا أن يسند هذا الأمر لكبار الأدباء المعاصرين لكي يختاروا عدداً من أفصح وأوضح الكتاب، ومن أبلغ وأكبر الشعراء حتى يتم الاختيار المباشر من نصوصهم. وإننى لأعجب كيف يترك قديماً أمثال المتنبي وابن الرومي والبحتري وأبو تمام والمعري والمشرى الرضى.. وفى العصر الحديث: البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، والأخطل الصغير، وإيليا أبو ماضي، وأبو المقاسم الشابي، ونزار قباني، والفيتوري وهاشم الرفاعي — ونأتى للتلاميذ (المساكين) بقصائد ماسخة لمدرسين أو موجهين ممن يقومون بأنفسهم وبحكم وظائفهم على اختيار نصوص القراءة!

وبالنسبة للنصوص المنثرية، لدينا من القديم: باقة مختارة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ومأثورات الصحابة كأبي بكر، وعلى ابن أبي طالب، وكبار الكتاب من أمثال ابن المقفع، والجاحظ، والمحاسبي، والغزالي. ومن العصر الحديث: الزيات، والرافعي، وأحمد أمين، وساطع الحصري، ومحمد الخضر حسين، والكتاب الصحف ^١ين: مصطفى أمين، ومحمد حسنين هيكل، وأنيس منصور.

أما المسؤالان : الثالث والرابع : فهما متصلان ببعضهما لأن الرغبة الشديدة في تعلم اللغة لا تكاد تنفصل عن النتائج المرجوة منها .
ويكفى أن نشاهد مدى الاهتمام والتشجيع الذي تبذله الأسرة ، التي ترغب في أن يتعلم ابنها أو ابنتها لغة أجنبية ، وكيف أنها تنفق على تعليمه بسخاء ، وتظهر له الفرغ به إذا تقدم بخطى ولو بطيئة في تعلم بعض الكلمات الأجنبية ، بينما أمثال هذه الأسرة ، ممن يتركون أبناءهم يتعلمون العربية لا يكادون يسألونهم عن تقدمهم أو حتى اخفاقهم فيها !

وبكل صراحة ، فإنني لا أقلل أبدا من الدافع الاقتصادي لتعلم اللغة . فالذي يتقن اللغة الإنجليزية تنتظره من الوظائف ما يؤهله لمكان رفيع المكانة في المجتمع ، أما الذي يتقن اللغة العربية فلا مجال له إلا في بعض الوظائف القليلة العائد والقيمة !

ومما يحزنني بحق أن بعض المطوائف التي ترتبط وظائفهم بإتقان اللغة العربية من أمثال القضاة والمحامين والإعلاميين بل والسياسيين لا يعطون للغة الفصحى ما تستحقه منهم ، بل ما يوجب عليه الأداء الجيد لوظائفهم التي تتطلب النطق بها بصورة صحيحة ، بل وبلغة أيضا . وإذا كان من الانصاف أن أنوه هنا بما تقوم به بعض القنوات الفضائية (العربية) من اختيار عدد من المذيعين والمذيعات الذين يتقنون تماما النطق بالعربية ، والمحاورة بها على مستوى عال ، وهذا ما دفع بعض القنوات في الاعلام المصرى إلى أن تحاول مجاراتها ، ولكن هيهات !

ولقد سبق أن ذهبنا في بحث سابق بعنوان (اللغة والفكر) (دراسات عربية إسلامية ، جـ 42) إلى أن الطفل إنما يضطر إلى تعلم اللغة من أجل تحقيق مصالحة الحيوية كشراب الماء ، وتناول الطعام ، واللعب مع الأتراب .. وهذا الدافع (المصلحي) ينبغي أن يكون حاضرا في أذهاننا ونحن نضع مقررات تعليم اللغة الفصحى ، بمعنى ألا يغيب عن بالنا أبدا محاولة تحقيق المصلحة لمن يتعلمها .
وحسبنا ادعاءات بأن هذه اللغة هي (اللغة الأم) وهي (لغة التراث) وهي (اللغة الجامعة لشملة الأمة العربية) .. فإن كل ذلك لا يجدى نفعا للشخص الذي يتعلمها إذا لم يدرك جيدا أن هناك (مصلحة ذاتية) له في تعلمها ، كأن يتولى وظيفة هامة ، أو يحصل على راتب محترم .

كذلك سبق لى أن كتبت بحثاً عن (المنظومة المتكاملة للنهوض باللغة العربية) (دراسات عربية وإسلامية ، جـ29) وفيه اقترحت — ومازلت أقترح — تأليف خمس أدوات ضرورية ، تكون فى أيدي متعلمي اللغة العربية ، وهى :

1 — قاموس عصرى لمعاني الكلمات .

2 — قاموس لتصريف الأفعال وإسنادها للضمائر .

3 — قاموس للاستخدامات المتعددة للأدوات .

4 — كتاب مبسط لقواعد اللغة العربية .

5 — كتاب لطائفة مختارة بعناية من أجود نماذج النثر والشعر .

وها أنا أؤكد مرة أخرى أنه بدون هذه الأدوات الخمس ، التى ما زالت غائبة ، سوف يظل متعلم اللغة العربية ، وكذلك معلمها ، تائهين فى فضاء مؤلفات ضخمة ، لكنها لا تسمن ولما تغنى من جوع .

ويكفى هنا أن أشير بعتاب شديد إلى عدم نجاح مجامع اللغة العربية المنتشرة فى عالمنا العربى حتى اليوم فى إخراج قاموس عصرى لمعاني مفردات اللغة ، يكون على غرار القواميس المتعددة المستويات فى كل لغات العالم المعاصر . لكن تلك المجامع مع الأسف لا تقوم بهذا الدور الذى لا يمكن لأحد سواها أن يقوم به . وقد أصبح كل همها مقتصر على مناقشة بعض المسائل الجدلية فى اللغة ، والتى يمكن استمرار الخلاف حولها إلى مالا نهاية !

أما أقسام اللغة العربية في كل من الأزهر، و دار العلوم، وكليات الآداب، والتربية فإنها لم تستطع أن تقدم هي الأخرى كتابا مبسطا واحدا يضم القواعد الأساسية للغة العربية، على الرغم من عدد المحاضرات التي تقدمها للطلبة.

لكن هذا القاموس الضروري، وكتاب القواعد المبسطة يظنان بلا مردود عملي إذا لم نغير نظرتنا إلى أولية اكتساب اللغة. وأنا هنا أحذر من البدء بالقواعد وأدعو بشدة إلى تقديم النصوص والتعامل الجيد معها قراءة وفهما ومحاولة محاكاة، بدلا من أن نثقل عقل التلميذ وذاكرته بتلك القواعد الجامدة، والتي تتسم بالتجريد والتعقيد.

إن التلميذ الذي يقدم له مائة مثال لجملة تتضمن (المبتدأ والخبر) أو (الفعل والمفاعل) أو (الجار والمجرور) سوف يجد نفسه منطلقا بعد ذلك في رفع ما يستحق الرفع، ونصب ما يجب فيه النصب، وجر المجرور. ثم أن يحفظ التلميذ قوله تعالى (سبع ليال وثمانية أيام) ويضعها في ذهنه أفضل ألف مرة من أن تقدم له قاعدة النحو العجيبة في العدد التي تذكر معدود المؤنث المفرد، وتؤنث معدود المذكر !!

إن التوقف للبدء بصورة صحيحة، وعلى أساس منهج منتج أفضل كثيرا من السير العشوائي الذي مازلنا حريصين على التمسك به في تعليم اللغة العربية الفصحى. ولعلنا الآن في غنى عن التعلل بصعوبة تلك اللغة فإن أبناءنا يتعلمون ما هو أصعب منها من اللغات الأجنبية. أذكر عندما كنت نائبا للتعليم والطلاب لجامعة القاهرة، وجدت أن كلية الآداب تضم قسما للغة اليابانية وآدابها في حين تخلو من قسم للغة الصينية التي يبلغ تعداد أهلها أكثر من مليار وثلاثمائة مليون نسمة! وقد عملت ما أمكنني لإنشاء هذا القسم بالتعاون مع المستشار التعليمي في سفارة الصين الذي تفضلت سفارته فزودت الكلية بمعمل أصوات، كما انتدبت اثنين من المدرسين من الصين. وقد أدهشني بحق حين قمت مع السفير الصيني بزيارة ابنائنا وبناتنا في قسم اللغة الصينية، ووجدناهم قد انطلقوا في إجادة أبجدية اللغة، والاستخدام المبسط لها، كما قدموا لنا عرضا من رسوماتهم الصينية الجميلة. وأتوقع أن هذا القسم الذي مر على إنشائه الآن عدة سنوات قد تخرجت منه أعداد تنتظرها وظائف هامة، أقلها وظيفة مترجم للغة الصينية في وزارة الخارجية المصرية.

وهذا ما يجعلنى متفائلا ، فما دام الجيل الجديد قادرا على تعلم اللغات الأجنبية الأكثر صعوبة ، فإنه سوف يكون قادرا على تعلم لغته العربية الفصحى ، خاصة وأن لدينا وعدا إلهيا بأن الله تعالى سيحفظها بحفظ كتابه الكريم الذى أنزله بها { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ صدق الله العظيم